

# الموسم

( ١٥ رمضان المعظم سنة ١٣١٦ ) ( ٢٧ يناير سنة ١٨٩٩ )

✻ الجريمة والعقاب ✻

✻ فلسفة وأصول ✻

{ ١ }

{ تمهيد }

في العشر الاواخر من أغسطس سنة ١٨٩٦ أتاح لي الحظ أن يممت مدينة جنيف من بلاد سويسره قاصدا زيارة مرضها والتريض بين مخضل رباها ومعتل هواها ولقاء من كان لي بها من الخلاص فصادف وجودي هناك انعقاد المؤتمر الدولي لعلم الأنتروپولوجي (١) ، الجنائية وعو العلم الباحث عن الصفات الطبيعية للإنسان من حيث ما يصدر عنه من الجرائم والمحظورات

انعقد للمرة الرابعة من يوم دونت مبادئ هذا العلم الحديث وما بالعهد

(١) كلمة يونانية مركبة من كلمتين anthropos انسان، logos دراسة فيكون معناها دراسة الانسان أي البحث عن أحواله الطبيعية وأعراضه الذاتية من حيث ما تؤدي اليه من الافعال والمرادها ما تخطى منها حدود القوانين

من قدم، فسعى اليه من اعماق الأثم واغوار الممالك أساتذة، كلهم جهابذة لهم المقامات المألومة والمذاهب المشهورة في أصول الشرائع وتحقيق مسئلة الجريمة والعقاب

جاؤا الى ذلك البلد الامين ليتبادلوا الافكار ويتجادبوا الآراء في مجال البحث عن أصل الجناية وفصلها وكيف تصدر عن الانسان وما هي حقيقة الجاني وهل ينجى اختيارا أو اضطرارا وكيف تنسب الجناية اليه وما وجه مسؤوليته عنها وما هي أنواع العقوبة الحققة والجزاء العادل وماذا ينبغي أن يقصده به وهل في القوانين الوضعية واق من شر المفسدين واعتداء الباغين أو انه القضاء المبرم لامرد له وما لهم من دونه من واق

\* \*  
\*

ورثنا انتظام عقد ناديتهم الاغمر هرع الناس اليه أفواجا من كل حدب ينسلون . وكثيرا ما كانت تشوقني شهرة بعض الاعضاء والوقوف على مؤلفات البعض الى استجلاء وجوههم والتقلي ولوبرهة بسماع كلامهم فانهزت فرصة الثمام مجلسهم هذا وسعيت اليه مع الساعين ودخلت في زمرة السامعين وقعدت مستجما القريحة مستجمعا اخواس أصغى وكلى سمع ونظر حتى رقى أول خطيب المنبر وخاض في عباب البحث وتحقيق المقام فكان ينجيل الى من سحر كلامه انها الحقيقة تجلت من فيه بنورها الواضح كما يتجلي الصباح فاذا أخذ مجلسه وقام بعده ثان أتى على جل ماذ كره صاحبه بالنقد والرد وأبرز الحقيقة في صورة أخرى مؤيدا مذهبه بساطع الحجة وقاطع البرهان مرسلا من كتائب آرائه جنودا لا تبقى في طريقها ولا تذر . ثم يتلوه على هذا النسق ثالث ورابع وهكذا تجاذب القوم أطراف البحث وعقولنا في أيديهم كأنها

كرة ضربت بصوالجة \* فتلقفها رجل رجل

والحقيقة في اذهاننا بين محو واثبات لا تبدوا الا ريثما تحتفي حتى انتهى المجلس  
وخرجت منه والحمد لله كما دخلت لا فائده ولا عائدة سوى كلمات بقي  
صددها يتردد في بيدها ذا كرتي كالهباء النثور . واذا وافيت منزلي قيدها  
جملا منفكة وألفاظا متفرقة لا نشر ولا تغنى من جوع . محمولات ولا  
موضوعات وموضوعات ولا محمولات اذ كر لك طرفا منها لتكون على علم  
من مواضع أبحاثهم وأساليبها وهي

ارتباط الانطروپولوجى بالعلوم القانونية . المجرم بفطرته . الجريمة الوراثية .  
الجريمة العرضية . الجريمة بالطبع . رأى الاسناذ فري والمدرسة الطليانية  
استدعاء الكسل . فساد الاخلاق واقتضاؤه . تولد الجرائم ونموها . تأثير  
المشروبات الروحية على الانسان وتأديتها الى ارتكاب المحذور . كون الجناني  
انما يجني اضطرارا . القوضاويون وعلم الانطروپولوجى الجنائية . أسباب الجرائم  
ودواعيها حسبما يرشد اليه هذا العلم . الطرق الفعالة في قطع هذه الاسباب  
أو ضعفها . حقيقة المسؤولية . جناة الاحداث والتصر وبماذا ينبغي أن يعاملوا  
السجون ونظامها الي غير ذلك من رؤس الجمل وأعجاز القضايا التي كانت  
تدور على السنة الخطاب . في مجالسهم الزهراء . فتذهب في الهواء . بين الارض  
والسما

فما قيده منها كما ترى ليس بالدرس المفيد . ولا بالعالم الجديد . وكنت أرجو  
غير هذا ولكن ما كل ما يمتنى المرء يدركه . وهون على الامر أن كنت في  
صحبة اثنين من فضلاء الاخوان فسأتهما عما فهما وما استفادا فأجابا بما سؤل  
بأسلم من السائل وزد على ذلك أن بعض الخطابات كان باللثة الطليانية وبعضها

بالالمانية فللعذر والحالة هذه تحمل  
غير أني وان فاتني تتبع أقوالهم واستقصاء أبحاثهم قد استنفدت فأئدة  
ليست بالقليلة لدى طالب علم ألا وهي  
{أهمية الموضوع}

الى هذا الحد فوق ما كان في حسابي تلك الالهية العظمى التي وجهت  
عناية أمثال هؤلاء العلماء الى موالاة البحث فيه من سائر جهاته وعقد  
المؤتمرات الدولية لاجله سنة بعد أخرى في كل عواصم أوربا منذ وضع  
الدكتور لومبروزو مبادئ علم الانطروبولوجي الجنائية وأسس مذهبا جديدا  
في أصول الجرائم وأسبابها كانت له طنة ورنة في آفاق المعمورة لما تضمنه  
من انغرائب والمعجائب التي سنشير اليها عند الاقتضاء وقد خذا حذوه مع  
التنقيح والتصحيح كثير من أقرانه أساتذة ايطاليين وغيرهم واعد ليس بالقليل من علماء  
الفلسفة الوضعية الطبيعية في المانيا وانجلترا خصوصا

\*  
\*\*

ومالبت الجمهور وهم رجال الفلسفة العقلية وعلماء الاصول الجنائية  
أن قاموا ممارضين وشنوا الغارة الشمواء على أدياء ذلك المذهب الحديث  
مبشرين منافاته لمبني الانسانية ومنافرته لكافة الشرائع والآداب وسائر  
الاديان مد حضين أقوالهم أيما ادحاض.

وتعصب كل فريق لمذهبه حتى أدى به ذلك الى الغلط والتطرف والشطط  
وكاد يرد وجه العلم من خنق وأوشك ضوء الحقيقة يمتجب في غياهب الجب  
عند ملتقي الفريقين. ولا غرابة فما هو الا البحث عن حقيقة الانسان وأفعاله  
(أقول) وهي هي بعينها تلك الحقيقة التي تشعبت فيها من قبل فلاسفة

الاسلام وحكماء المشرق وعلماء الكلام وانقسموا في تحقيقاتها طوائف وأحزابا  
ما بين أشاعرة ومعتزلة وطبيين وقدرية وجبرية من عهد أبي الحسن بن  
اسماعيل الأشعري ومعاصره أبي علي الجبائي بمدرسة البصرة في صدر الاسلام  
الي عهد أبي الوليد بن رشد بقربة آخر القرن السادس الهجري والقرن الثاني  
عشر المسيحي

في خلافة الناصر ترى الكندي (١) وابن سينا والغزالي وابن باجه  
وابن طفيل والفخر الرازي وابن رشد وغيرهم من علماء الملة قد خاضوا عباب  
هذه المباحث كلها وأنقوا من الكتب في سائر العلوم ما يهر العقول ويعجز  
الفحول تلك الكتب التي نسمع بأسمائها اليوم تطبع في كل عواصم أوروبا.  
نعم أخذت علوم الاصول والمنطق والحكمة والفلسفة بأنواعها والطب والطب  
والهيئة والرياضة والفقه والتوحيد تنتشر بانتشار الاسلام كضياء يغشي الظلام  
واشتعلت بذلك حركات الافكار اشتعال الشمس في رابعة النهار حتى خيف  
أن يفضي اختلاف الآراء الى فساد بين طوائف العلماء والحكماء فتأسست  
للتوفيق بين المذاهب جمعية اخوان الصفاء بالبصرة في أوائل القرن العاشر  
من الميلاد وحرروا رسائلهم المشهورة كدائرة معارف حققوا فيها وجوه  
التوفيق بين العلوم الحكمية والنصوص الشرعية في مسائل شتى. وبعد ذلك  
بقرنين حرر ابن رشد الاندلسي ضمن مؤلفاته العديدة كتابه المسمي بفصل  
المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، وطبع أخيرا في برلين، أسهب  
فيه الكلام على تحقيق معنى القضاء والقدر ومسئلة الكسب في الافعال  
ووجود الجزء الاختياري وأهمية الثواب والعقاب الي غير ذلك من معضلات



المدنية والسبب ان هذه القوانين أهلية محضة ومرجع التشريع فيها بعد العدل والنافع الي أصول متميزة واعتبارات خاصة بكل أمة قد تختلف من بلد الى بلد ومن حين الى حين

فن شأنها اذن أن تخصص بحالة الزمان وطبيعة المكان واصطلاح العرف واعتبار العوائد واحترام الاديان وانتظام العائلة ونحو ذلك مما به قوام كل أمة بذاتها وتميزها أمة على حدتها كالمحافظة على اللغة القومية والحقوق الجنسية والسلطة الاهلية والشعائر الوطنية . فن هذه الحثيات تتغير القوانين المدنية لدى الامم المختلفة وان اتحدت جميعها من جهة استنادها في الوضع الي ركني العدل والمنفعة

لأقول كما قال بسكال

*Vérité en deça des Pyrénées erreur au delà. Trois degrés d'elevation du pôle renversent toute la jurisprudence* (١)

فهو منتهى الافراط في التغالي وليكن أقول

مسترسلا في الاستطراد

ان من استقري الشرع الشريف في مصادره وموارده وجده شاهدا

لذلك الاصول بالاعتبار مرتبا عليها الاحكام

قال الشيخ السنوسي التونسي في مطالع الدراري أخذا عن شرح العمليات للاجماساني « ومن الموجبات الشرعية يعني لتبدل الاحكام تبدل العرف أو عروض جلب المصلحة أورد المفسدة فيرتبط العمل بالموجب وجودا وعدما ولاجل ذلك يختلف باختلاف البلدان ويتبدل في البلد الواحد

(١) حقيقة هنا، وخطأ فيها وراء جبال البرينيه فالأقرب من انقطب مسافة ثلاث درجات

بقلب الحقائق ويغير الاحكام

تجدد الازمان اه ،

واذن فقد ضل الذين ضاقت عقولهم وقصرت أنظارهم عن فهم أسرار الشريعة الاسلامية واستجلاء حكمها البالغة فضيقوا علينا المذاهب حتى آسعت رغم أنوفنا وانما الدين كما قال صلى الله عليه وسلم يسر ولن يشاد الدين أحد الا غلبه . آسعت ولكن بموامل الجهل ودواعي الاهواء وكان لنا مما أنزل الله مندوحة عن ذلك كله لو فهمنا معناه

والذي يردد الطرف في فلسفة التاريخ الاسلامي يرى ان ما تاوب الدول الاسلامية من عز وهوان وسعادة وشقاء وارتقاء وانحطاط انما كان بحسب اتباع كتاب الله وسنة رسوله أو الانحراف عن جادتهما المثلى فشرعية الله أذن أوسع وأوفى وأيسر مما يزعم الجاهلون ورضي الله عن سيدنا عمر ابن عبد العزيز حيث يقول تحدث للناس أفضية بقدر ما أحدثوا، ورحم الله ابن قيم الجوزية (١) حيث يقول في كتاب الطرق الحكمية

« ان الله سبحانه وتعالى أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط ، وهو العدل الذي به قامت الارض والسموات فاذا ظهرت أمارات ، العدل وأسفر وجهه بأي طريقة كانت فثم شرع الله ودينه . . . بل قد ، بين سبحانه وتعالى بما شرع من الطرق أن مقصوده إقامة العدل بين ، عباده وقيام الناس بالقسط فأى طريق استخرج بها العدل والقسط فهي ، من الدين ليست مخالفة لما نطق به الشرع بل موافقة له . بل هي جزء من ،

(١) هو الامام شمس الدين عبد الله محمد بن قيم الجوزية من رواسخ علماء القرن الثامن الهجري كان حنبلي المذهب وألف كتابا شتى من أهمها كتاب الطرق الحكمية في السياسة الشرعية توجد منه نسخة بالمكتبة الخديوية بالقاهرة وتوفى سنة ٧٠٩ هجرية طيب الله ثراه

« أجزاءه ونحن نسميها سياسة شرعية تبعاً لمصالحكم وانما هي عدل الله ،  
 « ورسوله ظهر بهذه الامارات والعلامات . فقد برأ رسول الله صلى الله ،  
 « عليه وسلم في تهمة وعاقب في تهمة لما ظهرت امارات الريبة على المتهم ،  
 « فمن أطلق كل منهم وخلي سبيله مع علمه باشتهاره بالفساد في الارض ،  
 « وأكثره سرقانه وقال لا آخذ الا بشاهد عدل فقول مخالف للسياسة الشرعية ،  
 « ... قال وقد ثبت انه صلى الله عليه وسلم أضعف الغرم على سارق مالا قطع ،  
 « فيه وشرع فيه جلدات نكالا وتأديباً وأضعف الغرم على كاتم الضالة عن ،  
 « صاحبها اه ،

\*  
\* \*

فهذه اشارات كلها عبارات تشهد ان ما نطمن به مؤلفو الاصول الشرعية  
 وفلاسفة القوانين الوضعية حديثها وقديما ليس بشارد عن مغزى انظار  
 شريعتنا لغراء ولا بشاذ عن أصولها الحقة ومبادئها الصادقة وهما هي كتب  
 الفقه كلها متفقة على أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم ينسخ  
 وكأى من آية قرآنية نسختها آية أخرى وكم من أحكام بدلت وكم  
 لا نمتنا الأولين من ترجيح واستحسان وقياس وبرهان في حين انه ان اتفق  
 ومر بخطر أحدنا نحن طلاب العلوم ان يتفكه بدراسة علم مما يسمونه بالعلوم  
 البرانية غلطاً كعلم المنطق مثلاً فأول مسألة نتلقاها عن أساتذتنا الكرام هي  
 مسألة الخلاف في جواز الاشتغال به أو حرمة شرعا

فابن الصلاح والنواوي حرماً \* وقال قوم ينبغي أن يعلم

ولكن للشيخ الاخضرى عذره المرجو

ولبنى احدى وعشرين سنة \* معذرة، مقبولة مستحسنه

فما عذرنا نحن ؟

وإذا كان مدرسو علم أصول الفقه من علمائنا الاعلام أصبحوا وكادوا يجمعون على سد باب الاجتهاد فما العمل لحفظ قوام الشريعة وابقائها ناموسا كليا لسعادة الانام على مر الازمان ؟ يا قومنا أجيئو داعي الله كيف دونت المذاهب ووضعت الاحكام واذا صح تمقيه وقد سألته عن الحكمة الشرعية لاحدي المسائل الفرعية أن يتسرع في اجابتك بأنها احكام تعبدية يلزم أن تؤخذ قضايا مسلمة وتعرف معرفة سطحية دون نظر في حقيقتها ولا سؤال عن حكمها فأني لنا أن نتفقه في الدين

هذه ابصارنا لا تتخطى مواطيء الاقدام حتى اذا قام منا عالم مرشد يدلنا على طريق الحق ومنهج الشرع قلنا له . مكانك يا هذا لقد كفرت وكنت من الملحدين . نعوذ برب الناس من شر غوايتك . انا وجدنا آباءنا على أمة لا طريق الا طريقنا ولا علم الا علمنا ، عنافأت مارق وامرأتك طالق . نعوذ بالله من غرور الدنيا

وذمرا انا الدنيا وهم يحلبونها . أفأويق حتى لا تدر لها ثعل  
كانه لم يطرق اسماعنا حديث ، اعمال لذيالك كأنك تعيش أبدا . واعمل  
لاخرتك كأنك توت غدا ، ولا حديث ، الحكمة ضالة المؤمن لا يبالى متى  
وجدها أخذها ، ولا حديث ، العلماء ورثة الانبياء ، ولا حديث ، المؤمن  
للمؤمن كالبنيان يشد بهضه بهضاً ، صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم

فما أهون تكفير المسلم عليهم - ذلك الامر الذي أعجز دول أوربا  
الاستعمارية كلها وأعيان قوتها وحيلها حتى بين هجم اخواننا المسلمين بمجاهل  
افريقية وهم لم يشموا من الاسلام الا عرفه فلم تستطع دولة أن تنصر منهم